المبحث الرابع
الموقف في المدينة المنورة

الحذر والترقب:

يقول أ/ باشميل: «ولم تكن المدينة غافلة عما يجري ضدها في مكة وبين مضارب البدو في نجد، فقد كانت استخباراتها العسكرية على غاية من التيقظ والنشاط.

فقد كان رجالها يتتبعون حركات الوفد اليهودي منذ فصل من خيبر في اتجاه مكة، وكانت على علم تام بكل ما يجري بين الوفد اليهودي وبين قريش أولًا ثم غطفان ثانيًا.

فكان رجال هذه الاستخبارات يبعثون بمعلوماتهم الخطيرة عن مفاوضات الأحزاب، أولًا بأول.

فظل المسلمون على غاية من الحذر والترقب ينتظرون النتائج النهائية للمساعي التي كان يقوم بها وفد خيبر لدى تلك القبائل العربية المعادية للمسلمين.

وبمجرد حصول الوفد اليهودي على موافقة قريش وغطفان على إنشاء الاتحاد العسكري الثلاثي المؤلف من اليهود وغطفان وقريش تلقت المدينة من رجال استخباراتها هذا النبأ الخطير، كما تلقت المدينة بعد ذلك من رجال استخبارات جيشها ما يجب أن تحصل عليه من معلومات دقيقة عن مبلغ قوة جيوش الأحزاب وعدد جنوده وأسماء قادته ومتى سيكون ميعاد تحركه نحو المدينة».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٢٦-١٢٧].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: فَلَمَّا فَصَلَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، خَرَجَ رَكْبٌ مِنْ خُزَاعَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ بِفُصُولِ قُرَيْشٍ، فَسَارُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ أَرْبَعًا، فَذَلِكَ حِينَ نَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ، وَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَ عَدُوِّهِمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ بِالجِدِّ وَالجِهَادِ، وَوَعَدَهُمْ النَّصْرَ إِنْ هُمْ صَبَرُوا وَاتَّقُوا، وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٤].

جغرافية المدينة:

يقول الشيخ عبيد: «لكي نتعرف على ما يجري في المدينة نتعرف أولًا على جغرافيتها؛ ليتضح لنا ميدان المعركة، ونتعرف على ما يجري في الساحة.

المدينة محصورة بين جبلين، ففي الجنوب الغربي يوجد جبل (عير)، وفي أقصى الشمال يقع جبل (أُحُد)، وعلى بُعد المدينة بما يعادل «٥ كيلو متر» تقع مدينة قُباء، ثم تحيط الوديان بالمدينة من جهاتها الأربع، فكانت بيوت المدينة متلاصقة بالجبال بحيث يصعب على أي مهاجم للمدينة أن يهاجمها من أي ناحية إلا من الناحية الشمالية.

وكان يهود بني قريظة يسكنون في الشمال الشرقي من المدينة، وهي الجهة التي يسهل الدخول منها، واليهود بطبيعة الحال ليسوا أهلًا للثقة؛ لأنهم ليسوا أهل وفاء بالعهد». [غزوة الأحزاب لعبيد ١٩].

مشاورة الرسول ﷺ للصحابة رضي الله عنهم:

يقول د/ هيكل: «واتصل نبأ هذا السير بمحمد ﷺ والمسلمين معه في المدينة ففزعوا، ها هي ذي العرب كلها قد أجمعت أمرها لتسحقنهم ولتقضين عليهم ولتستأصلنهم، وها هي ذي قد جاءت في عُدة وعديد ما لها في حروب العرب جميعًا من قبل مثل، وإذا كانت قريش قد انتصرت في أُحُد عليهم لما خرجوا من المدينة وكانت دون هذه الأحزاب بمراحل في العدد والعدة، فماذا عسى أن يصنع المسلمون لمقابلة الألوف المؤلفة من رجال وخيل وإبل وأسلحة وذخيرة؟! لم يكن سبيل إلى غير التحصن بيثرب العذراء، على ما وصفها عبد الله بن أبي.

ولكن أيكفي هذا التحصن أمام تلك القوة الساحقة؟!». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤٠].

وفور حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدو، شرع الرسول ﷺ في اتخاذ الإجراءات الفورية الدفاعية اللازمة، ودعا إلى اجتماع عاجل حضره كبار قادة جيشه من المهاجرين والأنصار، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير الناجم عن مساعي اليهود الخبيثة.

خطة الدفاع عن المدينة:

يقول أ/ باشميل: «ولما كانت المعلومات قد أكدت أن الهدف الرئيس من الغزو هو احتلال المدينة نفسها، فقد دار البحث في مجلس الرسول ﷺ العسكري ـ بصفة رئيسة ـ حول ما يجب اتخاذه من خطوات فعالة حاسمة للدفاع عن العاصمة، وهل يخرج المسلمون للقاء الأحزاب خارج المدينة كما فعلوا في غزوة أُحُد أم يبقون متحصنين داخل المدينة؟

وأخيرًا، تقرر أن يتحصن المسلمون في المدينة للدفاع عنها لا سيما وأن الجيش الذي جاء لغزوهم لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل بينما لا يزيد جيش المدينة ـ في أكبر تقدير ـ على ثلاثة آلاف مقاتل، بينهم كثير من المنافقين الذين لا يؤمن جانبهم ساعة الحرب.

ولقد اختيرت المنطقة الشمالية من المدينة لتكون خطًّا للدفاع الرئيس فيها.

المشكلة الكبرى:

وبالرغم من توفيق القيادة الإسلامية في اختيار ذلك المكان للدفاع عن المدينة، والذي لا يوجد أصلح منه للصمود في وجه الغزاة فإن مشكلة ـ لدى وضع الخطط ـ قد اعترضت القادة المسلمين وأقلقت بالهم، وهي أنهم فكروا ـ لدى وضع خطة الدفاع عن المدينة ـ كيف يمكنهم الصمود في وجه جيوش

الأحزاب الجرارة ومنعها من احتلال المدينة إذا ما شدت عليهم شدة رجل والتحموا معها في معركة فاصلة في ذلك المكان الواسع الواقع عند مداخل المدينة الشمالية؟

فجيش المسلمين وإن كان رجاله يمتازون بالشجاعة النادرة التي مبعثها قوة العقيدة الصادقة، إلا أن كثرة العدد الغامرة الساحقة التي يتفوق بها جيش العدو، لابد من أن يحسب حسابها بتعقل؛ لأن الكثرة في أغلب الأحيان تغلب الشجاعة كما يقولون.

صاحب فكرة الخندق:

ولهذا كان المسلمون ـ وهم يبحثون خطة الدفاع عن المدينة ـ يفكرون في إيجاد وسيلة فعالة يتحاشون بها الالتحام الشامل المباشر مع جيوش الأحزاب الجرارة المتفوقة ـ عددًا وعدة ـ في معركة فاصلة ليتسنى لهم تجميده أو تعطيلها عن الحركة على النحو الواسع الذي تريد وترغب.

ولدى بحث هذا الموضوع، كان سلمان الفارسي ﷺ موجودًا ضمن هيئة أركان حرب الجيش الإسلامي للتشاور، فتقدم إلى القائد الأعلى النبي ﷺ بمشروع مهم عظيم، وافق عليه النبي ﷺ واغتبط به القادة من أصحابه الكرام، ولقد كان لتنفيذ هذا المشروع الدفاعي أكبر الأثر في تجميد نشاط جيوش الأحزاب وشل حركتها ثم فشل الغزو في النهاية.

لقد تمخضت تلك المشاورة عن رأي سديد أدلى به سلمان ﷺ، حيث أشار بحفر الخندق لكي يحول بين العدو وبين المدينة». [زاد المعاد ٣/ ٢٧١، السيرة الحلبية ١/ ٦٣١]. [الأحزاب لباشميل ١٢٧-١٢٩].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: يُقَالُ: إِنَّ سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ ﷺ أَشَارَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْمُهَاجِرِينَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ قَالُوا: سَلْمَانُ مِنَّا؛ وَقَالَتْ الأَنْصَارُ: سَلْمَانُ مِنَّا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢٢٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَشَاوَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ مُشَاوَرَتَهُمْ فِي الحَرْبِ فَقَالَ: «**أَنَبْرُزُ لَهُمْ مِن المَدِينَةِ، أَمْ نَكُونُ فِيهَا وَنُخَنْدِقُهَا عَلَيْنَا، أَمْ نَكُونُ قَرِيبًا وَنَجْعَلُ ظُهُورَنَا إِلَى هَذَا الجَبَلِ؟**» فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: نَكُونُ مِمَّا يَلِي بُعَاثَ إِلَى ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ إِلَى الجُرْفِ، فَقَالَ قَائِلٌ: نَدْعُ المَدِينَةَ خُلُوفًا، فَقَالَ سَلْمَانُ ﷺ: «**يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ وَتَخَوَّفْنَا الخَيْلَ خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا، فَهَل لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ نُخَنْدِقَ؟**» فَأَعْجَبَ رَأْيُ سَلْمَانَ ﷺ الْمُسْلِمِينَ، وَذَكَرُوا حِينَ دَعَاهُمْ النَّبِيّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ أَنْ يُقِيمُوا وَلاَ يَخْرُجُوا، فَكَرِهَ الـمُسْلِمُونَ الخُرُوجَ وَأَحَبُّوا الثَّبَاتَ فِي المَدِينَةِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٤-٤٤٥].

ويقول د/ المدخلي: «ولم يرد في ذلك حديث صحيح غير أن الطبري قال: «حدثت عن محمد بن عمر قال: كان الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله

ﷺ وهو يومئذ حر، وقال: «يَا رَسُولَ الله، إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ إِذَا حُوصِرْنَا خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا».

[المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٥، تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٤٤، جامع البيان ٢١/ ١٣٠].

والواقدي وصفه أهل الحديث بأنه متروك مع سعة علمه.

وبذلك قال ابن هشام، ونقله عنه ابن كثير، وبه قال ابن الأثير.

وقد نقله الحافظ في الفتح حيث قال: وكان الذي أشار بذلك سلمان ﷺ فيما ذكر أصحاب المغازي منهم أبو معشر قال: «قال سلمان للنبي ﷺ: «إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ إِذَا حُوصِرْنَا خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا».

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ١٤٢-١٤٣].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَتَنَافَسَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ فِي سَلمَانَ الفَارِسِيِّ ﷺ، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: **سَلْمَانُ مِنَّا!** وَكَانَ قويًّا عَارِفًا بِحَفْرِ الخَنَادِقِ، وَقَالَتْ الأَنْصَارُ: **هُوَ مِنَّا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِهِ**، فَبَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ قَوْلُهُمْ فَقَالَ: «**سَلْمَانُ رَجُلٌ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ**».

وَلَقَدْ كَانَ يَوْمَئِذٍ يَعْمَلُ عَمَلَ عَشَرَةِ رِجَالٍ حَتَّى عَانَهُ (أي أصابه بالعين) يَوْمَئِذٍ قَيْسُ بْنُ أَبِي صَعْصَعَةَ، فَلُبِطَ بِهِ (أي صُرع وسقط إلى الأرض) فَسَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: «**مُرُوهُ فَلْيَتَوَضَّأْ لَهُ، وَلْيَغْتَسِلْ بِهِ، وَيُكْفِئْ الإِنَاءَ خَلْفَهُ**». فَفَعَلَ فَكَأَنَّمَا حُلَّ مِنْ عِقَالٍ.

فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ الْفُضَيْلِ بْنِ مُبَشِّرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله ﷺ يَقُولُ: لَقَدْ كُنْتُ أَرَى سَلمَانَ ﷺ يَوْمَئِذٍ وَقَدْ جَعَلُوا لَهُ خَمْسَةَ أَذْرُعٍ طُولًا وَخَمْسًا فِي الأَرْضِ، فَمَا تَحَيَّنْتُهُ حَتَّى فَرَغَ وَحْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ**. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٤٦-٤٤٧].

الخندق أعظم خط للدفاع عن المدينة:

لقد اقترح سلمان الفارسي ﷺ أن يسارع المسلمون إلى حفر خندق عميق يشمل كل المنطقة التي يتوقع أن ترتادها جيوش الأحزاب لاقتحام المدينة منها، على أن يتم حفر هذا الخندق قبل وصول جيوش الأحزاب إلى المكان الذي تبلغت القيادة في المدينة أنها قررت الوصول إليه، وهو السهل الواقع شمال غرب المدينة». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٢٩].

تفاصيل خطة الدفاع:

يقول أ/ باشميل: «تم الاتفاق بين قادة الجيش الإسلامي على خطة الدفاع عن المدينة، وهي كما يلي:

١ـ أن يبقى المسلمون في المدينة للدفاع عنها، وأن لا يخرجوا إلى الأحزاب خارجها.

٢ ـ أن تكون خطوط الدفاع الرئيسة في الطرف الشمالي من المدينة والواقع أمام جبل (سلع) على أن يكون هذا الجبل خلف ظهر القيادة الإسلامية.

٣ـ أن يقوم المسلمون بحفر خندق عميق يكون حاجزًا بينهم وبين جيوش الأحزاب.

٤ـ أن يقوم المسلمون بإخلاء المدينة من النساء والأطفال والعجزة، على أن يجمعوهم في الحصون والآطام (**الأطم** بضمة وضمتين: القصر وكل حصن مبني بالحجارة وكل بيت مربع مسطح والجمع: آطام) المنيعة، بعيدين عن العدو، ولتسهل حمايتهم (وخاصة من يهود بني قريظة الواقعة منازلهم في المدينة والذين لا يأمن المسلمون جانبهم).

٥ ـ أن تقوم الدوريات الإسلامية بحراسة المدينة على التوالي، طول الليل حتى الصباح».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٣٠].

النساء والذراري في الحصون:

يقول د/ المدخلي: «وعندما قرر الرسول ﷺ حفر الخندق ـ بعد المشاورة ـ أمر بنقل النساء والذراري إلى الآطام الحصينة حتى لا يصيبهم مكروه؛ لأنه كان يتخوف عليهم من اليهود ـ بني قريظة ـ حيث كانت منازلهم مما يلي العوالي (جمع العالي ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال وقيل ثلاثة (وهو الصحيح)، وكانوا قد مالؤوا الأحزاب ووافقوهم على نقض العهد الذي أبرموه مع النبي ﷺ، فقد روى الطبراني بسنده عَنْ رَافِعِ بنِ خَدِيجٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ الخَنْدَقِ لَمْ يَكُنْ حِصْنٌ أَحْصَنُ مِنْ حِصْنِ بني حَارِثٍ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ وَالذَّرَارِيَّ فِيهِ، فَقَالَ: «**إِنْ أَلَمَّ بِكُنَّ** (أي إذا حصل ذلك وهو دخول أي غريب عنهم إليهن) **أَحَدٌ فَأَلْـمِعْنَ بِالسَّيْفِ**»، فَجَاءَهُنَّ رَجُلٌ مِنْ بني ثَعْلَبَةَ بن سَعْدٍ يُقَالُ لَهُ: بُجْدَانُ أَحَدُ بني جَحَّاشٍ عَلَى فَرَسٍ، حَتَّى كَانَ فِي أَصْلِ الحِصْنِ، ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ لِلنِّسَاءِ: **انْزِلْنَ إِلَيَّ خَيْرٌ لَكُنَّ**، فَحَرَّكْنَ السَّيْفَ، فَأَبْصَرَهُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، فَابْتَدَرَ الحِصْنَ قَوْمٌ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ بني حَارِثَةَ، يُقَالُ لَهُ: ظُهَيْرُ بن رَافِعٍ، فَقَالَ: يَا بُجْدَانُ أَبْرِزْ، فَبَرَزَ إِلَيْهِ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَرَسُهُ فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ رَأْسَهُ، فَذَهَبَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ».

[مجمع الزوائد ٦/ ١٩٣ في المغازي والسير (١٠١٤٤)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٤ /٢٦٨ رقم ٤٣٧٨] ورجاله ثقات. ورواه ابن جرير في تاريخه بسنده من طريق ابن إسحاق. تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٧٠- ٥٧١].

[مرويات غزوة الخندق للمدخلي ١٤٤-١٤٦].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَمَرَ ﷺ بِالذَّرَارِيِّ وَالنِّسَاءِ فَجُعِلُوا فِي الآطَامِ. [السيرة لابن هشام ٢/ ٢٢٠].

وروى البيهقي بسنده عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ﷺ قَالَ: جُعِلْتُ يَوْمَ الخَنْدَقِ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فِي الأُطُمِ، يَعْنِي: حِصْنًا، وَمَعِي عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، فَجَعَلَ يُطَأْطِئُ لِي فَأَصْعَدُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَأَنْظُرُ إِلَيْهِمْ كَيْفَ يَقْتَتِلُونَ، وَأُطَأْطِئُ لَهُ فَيَصْعَدُ فَوْقَ ظَهْرِي فَيَنْظُرُ، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَى أَبِي وَهُوَ يَحْمِلُ مَرَّةً هَاهُنَا وَمَرَّةً هَاهُنَا، فَمَا يَرْتَفِعُ لَهُ شَيْءٌ إِلَّا أَتَاهُ، فَلَـمَّا أَمْسَى جَاءَنَا إِلَى الأُطُمِ قُلْتُ: يَا أَبَتِهِ، رَأَيْتُكَ اليَوْمَ وَمَا تَصْنَعُ، قَالَ: وَرَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ جَمَعَ لِي أَبَوَيْهِ قَالَ: «**فِدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي**».

[دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٣٩- ٤٤٠].

وعَنْ عِكْرِمَةَ: «أَنَّ صَفِيَّةَ كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٧ في المغازي (٣٧٩٧٧)، وقال الشيخ عوامة: «إسناده مرسل»].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَرَفَعَ المُسْلِمُونَ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ فِي الآطَامِ، وَرَفَعَتْ بَنُو حَارِثَةَ الذَّرَارِيَّ فِي أُطُمِهِمْ، وَكَانَ أُطُمًا مَنِيعًا، وَكَانَتْ عَائِشَةُ يَوْمَئِذٍ فِيهِ.

وَرَفَعَ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ النِّسَاءَ وَالذُّرِّيَّةَ فِي الآطَامِ، وَخَنْدَقَ بَعْضُهُمْ حَوْلَ الآطَامِ بِقُبَاءَ، وَحَصَّنَ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَلَفُّهَا (اللف: القوم المجتمعون)، وخَطْمَةُ، وَبَنُو أُمَيَّةَ، وَوَائِلٌ، وَوَاقِفٌ، فَكَانَ ذَرَارِيُّهُمْ فِي آطَامِهِمْ.

فَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبْجَرَ، عَنْ صَالِحِ بْنِ أَبِي حَسَّانَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي شُيُوخُ بَنِي وَاقِفٍ أَنَّهُمْ حَدَّثُوهُ أَنَّ بَنِي وَاقِفٍ جَعَلُوا ذَرَارِيَّهُمْ وَنِسَاءَهُمْ فِي أُطُمِهِمْ، وَكَانُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانُوا يَتَعَاهَدُونَ أَهْلِيهِمْ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ بِإِذْنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَبَيْنَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ، فَإِذَا أَحَسُّوا أَمَرَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا السِّلاحَ خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٥١، وستأتي روايات أخرى في: هجوم اليهود على النساء].